ذكريات عن أستاذي :

امـــبرتو ريتشي

١٨٧٩ – ١٩٤٥

للأستاذ مصطفى القوني

[أمبرتو ريتشي « Umberto Ricci » الاقتصادي الايطالي ذو الشهرة العالمية . أستاذ الاقتصاد السياسي في جامعة روما ، وأحد مؤسسي معهد الزراعة الدولي . وأستاذ المالية العامة بجامعة فؤاد الأول ، بين سنتي ١٩٢٨ ، ١٩٤٠ . وأستاذ الاقتصاد السياسي في جامعة اسطنبول بين سنتي ١٩٤٢ ، ١٩٤٥ كان ماراً بمصر ، عائداً من تركيا إلى بلاده ، وكان مريضاً فبقي في سرير المرض أسابيع ومات في القاهرة في ٣ يناير سنة ١٩٤٦ ودفن في أرضها]

أعود اليوم بالذاكرة إلى عشر سنين مضت ، إلى يوم رأيت أستاذي « أمبرتو ريتشي » لأول مرة ، في أول درس حضرته عليه . كنا في مقاعدنا ننتظر . وما هي إلا لحظات حتى أقبل وئيد الخطى ، ممتلىء الجسم ، قصير القامة ، كبير الهامة . وجه أسمر فيه من سمات الشرق أكثر مما فيه من سمات الغرب ، ولحية قصيرة فيها من البياض أكثر مما فيها من السواد ، وعينان تطرفان وراء منظار سميك ، وتنمان عما أضاع صاحبهما من نورهما في جريه وراء نور المعرفة ، وكأنما كان عليه ألا يستبدل نوراً إلا بنور ؛ ورجل لو رأيته ، دون أن تعرفه ، لما ترددت في أن تسائل من حولك : من يكون هذا « العالم » ؟ هذا هو أستاذنا « أمبرتو ريتشي » .

بدأ يعرض علينا موضوع العلم الذي جئنا نأخذه عنه عرضاً سريعاً ، وانتهى درسه الأول . وبدا لي أن ليس في كلامه من جديد . وسرت إليه ، ونحن خروج من قاعة الدرس ، واندفعت أقول له : « لقد درست هذا العلم من قبل ، ولست أدري ماذا على أن أصنع في عامي هذا » قال متسائلا : « درسته ؟ وتعرفه كله ؟ » قلت : « حق المعرفة » فنظر إلي نظرة فيها كثير من العطف وفيها كثير من الإشفاق وقال : « اسمع يابني ! إن لي نحواً من ثلاثين عاما ، لا أكاد أذكر أن يوماً منها قد مر دون أن أفكر أو أقرأ أو أكتب شيئا في هذا العلم الذي تقول إنك تحيط به . ومع ذلك ... فإني لا أظن أني أستطيع أن أقول ما تقول » .

ومرت الأيام ، وتوالت دروس أستاذي ريتشي ، وتوالت عنايته بي : فكان يختار لي ما أقرأ ، ويسألني فيما قرأت ، ويفتح لي آفاقا جديدة للتفكير والتأمل . وبدأ نطاق العلم ينفرج أمامي وبدأ طريقه يتشعب ، هذا الطريق الذي كان يبدو لي ، فيما مضى واضح المعالم بيّن الحدود . وتزداد صلتي بأستاذي ، مع الأيام ويرى ما أنا فيه من حيرة ، ولكنه لا يقول لي عن ذلك شيئا ويقارب العام نهايته ، ونحن نسير يوماً ، وإذا هو يقف ويسألني باسما : « هل تذكر ما قلت لي بعد درسي الأول ؟ ألا تزال تظن أنك تعرف موضوع علمنا كله ؟ » فخجلت مما كان من اعتدادي بنفسي وقلت له : « لست أدري ما ذا جرى . ولكن الذي أدريه هو أني أحس وكأني لم أعد أعرف شيئا » . فضحك وقال « إني الآن سعيد . لقد أخذت بيدك إلى أول الطريق . لقد بدأت تعرف . إنه حق ذلك المثل الذي يقول ، لو عرف الإنسان أنه جاهل لكان هذا قدراً غير قليل من المعرفة . ولكني لست أدري هل تحمد لي ذلك في مستقبل أيامك ، أم سوف يساورك الشك أحيانا ، وأنت تضرب في هذا الوادي ، وادي المعرفة ، الشبيه بوادي التيه ، فتسأل نفسك : ما الفائدة ما الفائدة من كل ما أضعت من أيام شبابي في الضرب في هذا الطريق الذي لا ينتهي ؟ » .

وإنه ليعبر الطريق ذات يوم فتكاد سيارة تدهمه فيقص عليه الخبر . وكنت أعلم أنه لم يكن ، في ذلك الحين ، زوجاً ولا أباً وأنه لا تربطه بدنياه هذه الروابط التي كنت أظن أنها هي كل ما يفزع الناس من الموت فقلت له : « كنت أعتقد أنك لا تخاف الموت » ففكر قليلا ثم قال : « ألا تدري أن بين يدي كتابي لما أتمها بعد أني انتهيت منها لكان سيان عندي أن أموت أو ألا أموت » .

وتمر السنون وأزداد معرفة بأستاذي ، فأرى كيف رقي علمه إلى حيث لا حدود ولا قيود ، إلى حيث يحس جوهر الأشياء